علم النفس

وصلته باللغة والأدب والاجتماع

للأستاذ محمد خلف الله

المدرس بالجامعة المصرية

— ١ —

مقدمة

هذا الموضوع — على طرافته — حلقة من سلسلة مباركة ، بدأها من قبل أساتذتنا وإخواننا فى علم النفس ، فذللوا بها صعوبة الأداء اللغوى ، ومهدوا فيها طريق التأليف . وقد اجتمعت لدىّ فيه طائفة صالحة من الأبحاث (فى كتاب معد للطبع) رأيت أن أقدم بعض نواحيها إلى قراء صحيفة « دار العلوم » جاعلاً نصب عينى غرضين أساسيين :

الأول : أن أساهم فى التعريف بنظم الدراسة النفسانية وتطبيق الصالح منها فى دراساتنا وأبحاثنا المصرية

والثانى : أن أقوم بنصيبى فى خدمة اللغة العربية من تجديد فى دراساتها ، وتوسيع لثروتها ، وتحديد لمصطلحاتها ، حتى تقوم بوظيفتها فى الأبحاث العلمية الحديثة على الوجه الأكمل ، وحتى تتمشى وروح الدقة فى العصر العلمى الحاضر

وقد آثرت فيما كتبت أن أدع الناحية التاريخيـة جانباً ، وأن أقتصر على أحدث ماوصل إليه علم النفس ، لأعرض منه صورة لطيفة ، يلذها المربى والقارئ ويجد فيها جمهورنا المثقف عوناً على تتبع الحركة الفكرية فى الممالك الراقية . وأنا فى هذا أتبع نموذجاً فى البحث والتأليف لفت نظرى كثيراً أيام دراستى فى الخارج وعلى الأخص فى انجلترا ، إذ وجدت القوم يتجهون إلى الأمام دائماً فيما يفكرون

ويعملون ؛ فهذا المؤلف ينقد رفيقه ، وذلك الباحث يبتدئ من حيث انتهى أخوه ، وهكذا يتناول القوم تراثهم العلمى فيزيدون فيه ، ويبنون كما بنت أوائلهم ، ويجمعون فى طريقتهم بين الاستمرار والتجديد

هذا وقد خصصت الأجزاء الأولى من البحث لنمو اللغة وترقى الفكر عند الطفل ، وعلاقة كل ذلك بمقدار الذكاء عنده ؛ وهذا منزع حدا بى إليه الميل الأدبى الذى أشربته منذ الصغر ، والدراسة اللغوية التى تيسرت لى قبل تخصصى في علم النفس ؛ وكان مما شجعنى على سلوكه أن رأيت الأبحاث النفسانية الحديثة (وقد جعلت ميدانها التصرف النائى ، واللغة بعض ذلك التصرف ، بل عنوانه وترجمانه) قد ولجت على اللغة أبوابها ، وأوغلت فى كشف أسرارها على أساس علمى تجريبي ، فأصبح عالم فقه اللغة ، وعالم النقد الأدبى ، يعتمدان على النتائج التجريبية لعلم النفس فيما يقرران من نظرية أو يسوقان من برهان . وهذا دين قام يوفيه علم النفس الحديث للغة ، فقديماً أذاع الشعر والقصص كثيراً من أسرار النفس ، وأمدّ الفلاسفة والنفسانيين بالمادة التى ارتكزوا عليها فى دراساتهم ، وقديماً أسدى علم النقد الأدبى إلى علم النفس أيادى جمة بما هذّب من استعمال الألفاظ ، وحدد من مدلول العبارات التى كان يستعملها العلماء فى التعبير عن النفس وأحوالها ، والعقل وتجاربه ، والتصرف ومظاهره . ولهذا كان إذا ذكر علماء النفس بالمعنى العام دخل فيهم الشعراء والروائيون والكتاب

وقد ظل هذا القران بين الأبحاث النفسية الأدبية ، والأبحاث النفسية العلمية ، ردحاً من الزمن ، حتى أخذت الدراسات الطبعية قالبها العلمى المضبوط ، وسرى الأثر منها إلى دراسات النفس ، فأصبحت فرعاً يدرس لذاته ، ونشأ بينه وبين القرين القديم جفوة وبعاد . هذا التنائى لم يكن منه بد ، فان الباحث العلمى الذى يحاول أن يصل إلى قواعد وقوانين عامة للتجارب ، مضطر أن يضع فروضاً ونظريات ، وأن يزن الألفاظ بميزان حساس ، وقد يغلو فى ذلك فينقلب علاجه للموضوع أبحاثاً نظرية جدلية ، لا تدنى من فهم الطبيعة الانسانية ، وإنما تباعد

عنه ، ونخرج بعلم النفس عما قال فيه ابن رشد : « وعلم النفس أغمض وأشرف من أن يدرك بصناعة الجدل » هكذا كانت الحال فى القرن الماضى حين كانت الأبحاث النفسانية إنما يقصد منها شحذ القريحة والتفنن فى ضروب الحجج ، والمهارة فى التفريع والتدقيق ، على أن ذلك لم يدم طويلا ، فقد بدأ الناس يدركون أن هذه النظريات النفسانية على ما بينها من تناقض وخلاف ، ممكنة التطبيق فى الحياة العملية ، فطبق بعضها ونجح ؛ وانصرفت همة الكثيرين من الباحثين إلى ما يسمى الآن علم النفس التطبيقى ، وأصبحت ترى حتى علماء الأدب وفقهاء اللغة ينشئون حدائق هذا العلم ليقتطفوا منه ما يعينهم على فهم التجارب والآراء الانسانية

ولست فى حاجة أن أنوه هنا بما لعلم النفس الآن من منزلة فى الشعوب المتحضرة فقد أصبح عماد المربى ، وقوام التاجر ، وسلاح السياسى ، وعدة الطبيب ؛ وأصبح القوم يعتبرونه المحور العام للدراسات الانسانية ، عليه تعتمد هذه الدراسات ، وفيه تجد أساسها الذى ظلت تنشده زمناً طويلا ، ولئن كان القرن التاسع عشر قد اصطبغ فى تفكيره بصبغة علوم الحياة ، إن القرن الحاضر ليعتبر عصر العلوم الانسانية ، ففيه تحررت هذه الدراسات من ربقة النظريات الفلسفية ، وأخذت تدنو رويداً من حظيرة العلوم الحديثة ، حتى أصبح العمل والقياس والتجربة دعائم أبحاثها ، وحتى أصبحت الفلسفة ربيبتها ونهايتها لا مصدرها وبدايتها

هذا التحول الكبير فى وجهة النظر العلمى يدركه كل من درس الفلسفة أولا ، واصطدم بنظرياتها وألغازها حتى تشعبت به السبل واختلطت عليه الموارد فراح يبنى نجوته فى فرع كعلم النفس مبنى على المشاهدة والقياس ، ولقد قدر لى فى ثمانى السنوات التى قضيتها فى أوربا أن سلكت هذه السبيل ، فدرست الفلسفة وفروعها من علوم نفس واجتماع وسياسة ومنطق وأخلاق وجمال وإلهيات ، فما إن قطعت شوطاً حتى وجدتنى أميل إلى التخصص فى ناحية واحدة هى ناحية علم النفس ، فدرسته عملا وتجربة فوق دراسة البحث والنظر ، ثم اخترت من ميادينه الواسعة ميدانين : سيكولوجى اللغة ، ونفسانية الأطفال

فوهبتهما معظم جهدى وزمنى ، وقضيت حوالى السنتين متنقلا فى المدارس الابتدائية أدرس الأطفال فى منطقهم وتفكيرهم ، ثم دونت بعض النتائج فى رسالتى التى قدمتها لدرجة الماجستير من جامعة لندن

هذه الدراسة الشخصية التى قمت بها هى التى عنيت الآن أن أنقلها إلى القارىء فى ثوب عربى ، وحرصت أن أجعلها صورة متحركة للطفولة من مهدها إلى رشدها ، وقرنت فيها النتائج بمصادرها ، حتى يسهل على إخوانى المربين وطلبة الفلسفة وعلم النفس واللغة ، تتبعها فى مواطنها والاستزادة منها ؛ وسأتناول فى المقال التالى طرق الدراسة النفسانية التى ستتكرر الاشارة إليها فى نقط البحث ، إن شاء الله .

محمد خلف الله